الذين لا يموتون

قصة بقلم جان لكسان

بكى جيمس الصغير عندما بال في ثيابه ، فاضطرت جدته لان تترك الكتاب من يدها بعد ان ظلت ثلاث ساعات كاملة تقرأ .. وقامت فانهضته من سريره ، ثم ابدلت ثيابه واجلسته في مكانه المعهود على وسادته المربعة تحت النافذة العريضة المطلة على (ابي رمانة) ، فجلس يضرب الهواء بيديه وهو ينقل نظراته الطفلة البلهاء في ارجاء الغرفة ، ثم لا يلبث ان ينقض على السيارة الصغيرة الواقفة عند قدميه ..

وقبل أن تتناول الكتاب من جديد لتعود الى كرسيها الطويل ، رن جرس الباب الخارجي ، فمشت اليه تفتحه لتستقبل الجارة (ام فؤاد) التي حيتها ثم سألتها بالانكليزية : هل المستر (بيل) هنا ؟

— لا .. لقد خرج الى الدائرة منذ الصباح الباكر ..

— كنت اريد ان اسأله عن مسألة تتعلق بابني فؤاد ..

— انه الآن في لندن ، أليس كذلك ؟ .

— هذه هي السنة الثانية يقضيها هناك .. انه يدرس الهندسة الميكانيكية ..

— يمكنك مقابلة (بيل) عندما يأتي للغداء .. والآن ، هلا تفضلت لنشرب القهوة في الداخل ؟.

— . اعتذر الآن .. شكراً .. والى اللقاء .

وعادت (ام فؤاد) تهبط درجات الفيلا الثلاث الى الرصيف ، فاغلقت السيدة كابيلا الباب ، وسارت الى كرسيها الطويل بعد ان تناولت الكتاب الضخم ذا الغلاف البني السميك ، وراحت تقرأ من جديد ..

وهذه ليست المرة الأولى التي تغرق فيها بقراءة كتاب له صلة . بالتاريخ ، فهي منذ هبطت دمشق تفرغت لاشباع هوايتها المفضلة التي تمارسها منذ وعت الحياة والمفاهيم في مسقط رأسها « غلاسكو » تقرأ اكثر ساعات النهار ، وتعنى الى جانب ذلك بحفيدها الصغير جيمس عندما تكون امه في مدرسة الاناث الثانوية التي تعلم فيها اللغة الانكليزية .

* * *

لم تكن الصورة التي كونتها السيدة كابيلا في مخيلتها عن الشرق دافئة ملونة كالتي تصورها اساطير الف ليلة وليلة واجواء الافلام الهندية الساحرة . فهي — منذ طفولتها — لا تحب الاشياء الا محسوسة كما هي في الواقع .. قرأت ما كتبه « موريالك » عن الجيرونديين ، وظلت الصورة امامها ناقصة ، حتى استطاعت ان تشهد تجربات كتلك التي عاشوها ، فانداحت بتفكيرها ، وهي تشهد هذه التجربات — لتعيش في الاجواء التي صورها « موريالك » وعندها اكتملت الصورة في ذهنها ووضحت معالمها المهزوزة ، وعرفت اسباب تفتح الوعي لدى الذين يكتبون عن شعب يعيشون معه تجرباته ، ويستشعرون حاجاته وهو يتخبط بين انظمة فاسدة كشريعة الغاب .

وظلت السيدة كابيلا غارقة في كتب التاريخ .. لم تمكث طويلا في المدرسة ، ولم تفكر قط ان تكون معلمة أو صيدلية ، او حتى طبيبة كزميلتها « نينا » التي كانت تجاورها على مقعد الدراسة .. كانت تقول ان الانسان لا يتعلم في المدرسة كل شيء ، وان حقل الحياة العامة هو المدرسة الحقيقية لمن يريد ان يعيش كانسان ، وان يحس ويرى ويعرف اشياء كثيرة ..

خاصمها اهلها ، وطلبت امها من الله ان يميتها لأنها لم ترض رغبتها في اتمام تحصيلها ، وكان أخوها (رود) يسب « رجال الخرافات » — كما كان يسميهم — لأنها كانت تقضي معهم اكثر اوقاتها بوله ورغبة ، هؤلاء الذين دخلوا قلب التاريخ فسجل عنهم صفحات يقرأها زملاء كابيلا في المدرسة لينالو عليها درجات تؤهلهم للنجاح في الامتحان ، وتقرأها هي لتعرف اشياء اكثر عن الامم والناس والحياة ..

وفي لندن .. تزوجت وانجبت ولديها « بيل » و « روث » ، ثم مات زوجها في حادث سيارة . وتزوجت (روث) وذهبت مع زوجها تعيش في بوسطن ، فظلت السيدة كابيلا تعيش في دار ولدها « بيل » الذي تزوج بدوره . وهذه الاحداث التي مرت في حياتها لم تؤثر يوماً على هوايتها المتطرفة .. كانت احداث التاريخ القديمة والحديثة تشغل من تفكيرها اكثر مما تشغله اخبار ابنتها الوحيدة البعيدة عنها . وقد ظلت مرة ، اكثر من اسبوع ، تفكر في التعليل الاصح لظاهرة (وأد البنات) التي قرأت عنها في كتاب لمؤرخ بلجيكي عن القبائل العربية في الجاهلية ، عادت الى اكثر من مصدر ، وراحت تسأل عن مصادر اخرى جديدة في مكتبات لندن ، فانشغلت بذلك عن ارسال بطاقة تهنئة الى « روث » بمناسبة عيد زواجها التي لم تفتها عاماً قط ! .

ولم تكن السيدة كابيلا تهتم بقراءة الكتب التي لا صلة لها بالتاريخ ، ولكنها كانت تقرأ كل ما يقع في يدها من كتب التاريخ المختلفة . درست الامم التي تعاقبت في اكثر مناطق العالم وخلال اكثر العصور ، درست شخوصها وملوكها وحروبها وحضاراتها واسباب ضعفها وانهيارها ، واهتمت كثيراً بسير الانبياء الذين عاشوا في الشرق ، فهي تعدد (شروط الحديبية) التي ابرمت بين الرسول العربي وبين اهل مكة ، وتروي بطولات وقعة اليرموك باعجاب كبير ، وتتحدث عن المسيح وكأنها بطرس كبير الحواريين ، وتعدد اسماء القبائل التي كانت تجاور هضبة التيبت في القرون الوسطى وكأنها تعدد ضواحي لندن ..

وقد احبت الشرق منذ صبي شبابها الأولى بالرغم من ان الصورة التي كونتها عنه ليست دافئة ملونة كالتي تصورها اساطير الف ليلة وليلة واجواء الافلام الهندية الساحرة .. وظلت رغبة الذهاب الى الشرق تراودها ، خاصة بعد موت زوجها .. كانت تريد ان تشهد التاريخ الذي ينام بين يديها على الورق حياً يعيش فوق الأرض .. وظلت تلح في رغبتها على ابنها بيل حتى سمح لها بالذهاب ..

وعند ذلك طارت الى الشرق ...

شهدت في اليابان زلزالين عنيفين .. وتنقلت في الصين بين القرى تسأل عن امكنة احداث المجاعة العظيمة التي قرأت عنها ، في رواية « بيرل بك » (الأرض الطيبة) .. وفي الهند قص عليها احد (الفقراء) اشياء لم تكن قد قرأتها عن غاندي صاحب الجسد النحيل الضاوي العاري الاطراف ، الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يهجم ولا يضرب ، والذي وقفت روحه الانسانية في

وجه الاساطيل والجيوش فغلبتها ..

وقطعت جبال الاورال في قطار روسي ضخم كان يجرف الثلج عن خط مسيره الحديدي بواسطة البخار ، وهو ينزلق عليه بسرعة عظيمة .. اما في ايران فقد اكتفت بزيارة الآثار وآبار البترول ، وحاولت عبثاً ان تربط بين تاريخ الفرس القديم وتاريخ اهل ايران الحديث .

وحطت بها طائرة ركاب تابعة لشركة الخطوط الانكليزية في بغداد .. لم يكن الانقطاع الكلي الذي استشعرته في تاريخ الفرس ظاهراً في العراق ، وان كانت الخيوط القوية التي تربط بين الحاضر فيه والماضي ليست كما تخيلتها قويّة .. لم تقرأ على اكثر الوجوه شيئاً يروي شمم الارض السمراء التي لم تخنع ، ولكنها مع ذلك لحظت في العيون شيئاً لا يخفى على كل الناس ، يلتمع احياناً باصرار ، فيستشف منه المستقبل بقلق وأمل ..

وسافرت السيدة كابيلا الى الشمال حيث شهدت بقية من آثار البابليين والفرس والعرب .. وكم تمنت ان تقضي ليلة في خيام البدو المبعثرة على جانبي الطريق ، لتشترك مع النسوة البدويات في تقطيع اللحم وقلي التمر الاصفر في السمن العربي .. ووجدت ان الامنية بعيدة عنها في العراق — كما كانت في لندن .

وفي اصيل اليوم الثالث لوصولها بغداد انساب بها دجلة نحو الجنوب في زورق ركاب ضم باقة من طلاب الجامعة وطالباتها .. وعندما جاء الظلام اشعل الملاحون الفوانيس في الزورق ، وراحت بعض الطالبات يهزجن باغنيات عراقية ما ارتاحت السيدة كابيلا لها كثيراً ، كما لم يهزها صوت (المطبق)(١) الذي كان ينفخ فيه ملاح شاب وهو يهز رأسه مع النغم باستمرار ، الا انها أخذت بمنظر النخيل على ضفتي النهر ، وابى هواء الليل الرطب الا ان يقلب امامها صفحات كثيرة من تاريخ العراق ، الى الوراء ، الى عصر (ذهبيات) العباسيين التي قرأت عنها كثيراً والتي كانت تمخر عباب دجلة ، تحمل الجواري والقيان وهن ينشدن الاشعار على رنات الاوتار ..

وفي صباح اليوم التالي ، عند « القوزية » ، حدثتها احدى الطالبات المسافرات ، بلغة انكليزية صحيحة — عن اختلاط النهرين العظيمين في شط العرب ، ولم تهتم السيدة كابيلا بحديث الصبية العراقية بقدر ما اهتمت بالسحر الذي في عينيها السوداوين وبخصلة الشعر الثائرة على جبينها الأسمر ، وامتد الحديث بعد ذلك شيقاً بينهما ، ووجدت السيدة كابيلا في الفتاة العراقية صديقة طيبة ، ثم سألتها بعد قليل : اين تنتهي رحلتكم ؟.

— سنقوم بجولة في شط العرب ، ونترك الماء في البصرة ، ثم نعود في سيارة الى بغداد بعد ان نزور بعض الاهوار المائية ..

— وهل رحلتكم دراسية ؟.

— انها نزهة اكثر منها رحلة علمية .. زيارة وتجارة ، كما يقولون .

ولم تفهم السيدة الانكليزية تماماً معنى جملة الفتاة الأخيرة ، حتى اعادت صبيحة — اسم الفتاة — شرح الجملة وافهمها اياها على انها جملة دارجة في مثل هذه المناسبة ..

وقالت السيدة كابيلا بعد قليل :

— هل تمانعون في ان ارافقكم بهذه الرحلة ؟.

واستدارت صبيحة الى شاب رياضي الجسم يجلس على مقعد خشبي في نهاية الزورق ، وحدثته بلغة عرفت السيدة كابيلا انها اللغة العراقية ، فاجابها الشاب جواباً مقتضباً .. فهزت صبيحة برأسها للسيدة الانكليزية مبتسمة اشارة بالقبول .. وتم التعارف بين السيدة الاجنبية وبين افراد الرحلة ، وظل الزورق في انسيابه حتى البصرة ..

وفي طريق العودة الى بغداد ، احتلت صبيحة المقعد الذي الى جانب السيدة كابيلا ، وراحت تجيب على اسئلتها الكثيرة عن حياة العرب في العراق . وبالرغم من ان الفتاة العراقية كانت تجيب بتحفظ ، فقد تلاشت من ذهن السيدة كابيلا بعض علامات الاستفهام التي طالما ارتسمت امامها بعناد بين الحروف السوداء المصاوبة على الورق ، عندما كانت تحاول ان تعرف الصورة الحقيقية للحياة التي يعيشها الناس في حاضرة العباسيين .

وقذفها العراق بعد ذلك في قطار خرج من بغداد فالموصل حتى دخل الاراضي السورية .. وقد كتبت السيدة كابيلا في دفتر مذكراتها ، عندما جلست لترتاح من عناء السفر بفندق كونتيننتال بحلب :

«السبت ٧ ايلول . . وفي الساعة الحادية عشرة ظهراً دخل بنا القطار الاكسبريس الاراضي السورية عند بلدة سورية صغيرة -اسمها « تل كوجك » مكثنا فيها نصف ساعة فقط ، وابنيتها واطئة طينية ولكن اهميتها تعود الى انها واقعة بين سورية وتركيا والعراق .. وبعد ثلاث ساعات تقريباً وصلنا محطة مدينة (القامشلي) ، وكانت السهول التي الى يسارنا بين تل كوجك والقامشلي واسعة مزروعة ، وقد قال لي طبيب اسمه (عزيز بشارة) — كان معي في العربة — ان هذه السهول اسمها (سهول الجزيرة) ، وهي اغنى مناطق سورية الزراعية ، تغل القمح والشعير والقطن بكميات وافرة .. اما الاراضي التركية التي الى يمين الخط الحديدي ، فكانت سهلا ضيقاً يرتفع فجأة بشكل جبال زرق عالية ارجح انها امتداد للسلسلة التي تمتد في جنوب تركيا من الغرب الى الشرق .

ومحطة القامشلي كبيرة ، اما المدينة فلم ارها ، اذ انها بعيدة ، ولكن بيوتها الصفر كانت تظهر لي من بعيد .. وفي محطة القامشلي صعد الى العربة التي أجلس فيها رجل كهل يحمل حقيبة كبيرة ، وخلفه شابة صغيرة القد جميلة الوجه ، وعلى ذراعها طفل صغير اشقر ، فاحتلا المقعد المقابل لمقعدي دون ان يلقيا التحية ، ولا اعرف سبب هذا التحفظ الذي اراه هنا عند الناس .. وقبل ان يرتفع صفير القطار صعد الى العربة شاب اسمر طويل يبدو الاعياء واضحاً على وجهه ، فادار عينيه في العربة ، ثم احتل مكاناً مجاوراً لي بعد ان حياني بانحناءه من رأسه ..

وتحرك القطار من المحطة الى محطة تركية قريبة في مدينة صغيرة اسمها « نصيبين » ، وقد عرفت من مرافقي الشاب فيما بعد ان فيها ضريح احد القديسين الملافنة واسمه (مار افرام السرياني) .. وبقينا في نصيبين ثلاث ساعات كاملة ، تسلم اثناءها القطار موظفون اتراك ، وعندما جاء الليل سار القطار سريعاً يطوي الاراضي التركية نحو الغرب .

كانت السماء صافية وهواء ايلول المنعش يبعث نشاطاً في الجسد ، وشعرت ، عندما خرجنا من المحطة ، ان الشاب الاسمر النحيل الذي الى جانبي يريد ان يحدثني ، فسألني بلغة فرنسية : هل تتكلمين الفرنسية ؟ ولما اجبته بالايجاب غرقنا في حديث طويل .. وكان الكهل امامنا قد ارخى رأسه الى الوراء في شبه اغفاءة ، بينما احتضنت زوجته — قال لي الشاب انها زوجته — طفلها بعد ان دثرته جيداً ، وراحت تنظر في النافذة العريضة بلا هدف معين..

والشاب الذي كان الى جانبي اسمه داود جرجس درويش ، اديب فيلسوف ، يعمل — كما قال لي — موظفاً في البنك التونسي الجزائري بالقامشلي ، وهو منكب منذ سنوات على وضع نظرية فلسفية جديدة اسمها (النظرية الثلاثية الشمولية) شرح لي منها كثيراً وقال انه وضع عنها ثلاثة مجلدات ضخمة ولا يجد من يطبعها له اذ انه لا يستطيع ان يتكبد مصاريف طباعتها ، كما قال

(١) مزمار من القصب

لي ان زوجته لا تنجب اطفالا ولكنه يحبها كثيراً ..

وجدت في هذا المرافق مسلياً ومرشداً ، وقد شرح لي اشياء كثيرة عن سورية والعرب ، وسأدون ما قصه علي في فصل سأفرده لذلك ..

ونحنا في ساعة متأخرة من الليل ساعة قليلة .. ولما جاء الفجر كنا نقطع نهر الفرات على جسر طويل ، وفي قرية تركية — نسيت ان اسأل عن اسمها — صعد مفتشون اتراك لينظروا في اهويات وفي جوازات السفر التي يحملها الركاب .. ومرت دقائق حدثت بعدها ضجة في عربات الدرجة الثانية ، ولما سألت السيد داود عنها ، خرج الى الممر ثم عاد وقال ان المفتش التركي رفس بحذائه تاجراً اردنياً كهلا — كان نائماً — ليوقظه ويؤشر على جواز سفره . فما كان من الرجل الاردني الا ان اهوى بقبضته على وجه الموظف التركي فكومه في ارض العربة .. وقد تدخل البعض وانهوا الخلاف .

حقاً — كما يقول المؤرخ الفرنسي (تيستان) — ان الاتراك قوم افظاظ .

وعند قرية ، قرأت اسمها على اللائحة هكذا « جوبان بك » دخل القطار سورية بعد ان تسلمته السلطات السورية ، وبعد الساعة العاشرة صباحاً بقليل كان القطار يدخل محطة حلب .. »

وفي صباح اليوم التالي غادرت السيدة كابيلا حلب الى اللاذقية فرأس شمرا . وهناك تعرفت باثنين من علماء الآثار الاجانب ، حكيا لها كثيراً عن حضارة سكان البلاد القدماء ..

ثم انتقلت الى تدمر لتقف امام آثارها ، تشهد عظمتها وتتصور الملكة العظيمة زنوبيا ، وحطت رحالها اخيراً في دمشق لتشهد الايام الأولى لمعرض دمشق الدولي في سنته الأولى ..

وكتبت ملخصاً عن دمشق في دفتر مذكراتها بعد وصولها اليها بثلاثة ايام : « ان الصورة المزيفة التي اخذها الناس في الغرب عن العرب ، ليست كما هي في الواقع .. هؤلاء الناس — على بساطة مظاهرهم الحضارية الجديدة — اناس اصيلون ، يقرأ الانسان في وجوههم السمر حكاية الحياة الخالدة .. لم اتصور قط ان تكون عاصمة الامويين جميلة بهذه الروعة ، ولا سوقاً ضخماً بهذا الشكل ، ولا مسرحاً لتظاهرة اقتصادية كبيرة بين الدول .

من الاماكن التي زرتها في دمشق وضواحيها : المعرض ، مدينة الملاهي ، قصر العظم ، المتحف ، سوق الحميدية ، الجامعة السورية — دير صيدنايا — مزار الست زينب ، الجامع الاموي ، التكية السليمانية ، ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين ..

دمشق جميلة كالعروس ، هي حلم رائع من احلام الامويين .. انني اتمنى لو اقيم فيها مدة طويلة لأسجل عنها خواطري باسهاب .

ملحوظة : لقد لمست لدى العرب في دمشق اشياء ما كنت اتصورها. انهم طيبون ، لطفاء ، كرماء ، في عيونهم عزم وفي وجوههم لا تزال خطوط كثيرة من تاريخهم العريق ، ظاهرة .. اما المظاهرة الجماهيرية التي شهدتها يوم وصولي دمشق ، فقد كانت موجة صاخبة من العواطف والصراخ ، ولكنها كانت غير منظمة .

ملحوظة اخرى : ان العرب هنا يهتمون كثيراً بالاسماء التاريخية العربية ، والفندق الذي حللت فيه اسمه (فندق اميه) ، نسبة الى الامويين ، الذي كانت دمشق عاصمة لهم ، عندما انتقلت الخلافة الاسلامية من الحجاز الى الشام » . .

وبعد عشرة ايام ، اتجهت بالسيدة كابيلا سيارة ركاب صغيرة نحو الأردن حتى القدس .

وهناك ، غابت عن العالم لتعيش مع التاريخ تستعرض جيوش الصليبيين ، ومرت امامها صور المعارك تترى ، ثم بدا صلاح الدين الايوبي عملاقاً طيباً ، يهزم اعداءه ، ثم يسقيهم الماء البارد .

واحست السيدة كابيلا ، وهي واقفة على تلة في القدس القديمة ، بأن الحجارة كلها تصرخ حولها : ماذا جئت تستعرضين في بلادنا يا انكليزية ؟. اما يكفيك ما اجرم به قومك فيها ؟. ألم تشهدي سفنهم تنقل اليها حثالة البشرية ليدنسوا ترابها ؟. هل رأيت بوابة مندلبوم ؟. ان التاريخ يبكي عندها يا انكليزية .. يبكي على الارض الكريمة تدنسها طغمة الاشرار ! . هيا اخرجي. اخرجي من هذه الارض .. اخرجي يا اجنبية .. اخرجي يا انكليزية ! ..

ولكن السيدة كابيلا ظلت واقفة في مكانها ، وصورة جديدة مؤلمة لمأساة فلسطين تركزت في عينيها الزرقاوين الهادئتين ، ولم تستطع ان تقاوم كثيراً ، فبكت ..

لا تعرف بالتحديد لماذا بكت .. كل ما ادركته انها شعرت بحاجة ماسة لان تطلق دموعها التي احتارت في تعليل دوافعها .. ولكنها احست بعد قليل براحة عظيمة امتدت دافئة في انحاء جسدها النحيل ، فمسحت وجنتيها بمنديلها وانحدرت في الدرب الترابية تسأل الناس عن الطريق الى الفندق .

وعندما دخلت غرفتها دخل عليها عامل الفندق وبيده برقية لها عاجلة من لندن جواباً لبرقية كانت قد ارسلتها فور وصولها القدس ، وكانت البرقية تفيد بوجوب حضورها ، لأن ابنها « بيل » اصيب في حادثة اصطدام .

وفي اليوم التالي كانت السيدة كابيلا تستقل الطائرة في طريقها الى لندن ..

لم تتمكن من زيارة بقية البلدان التي كانت في برنامج رحلتها ، ولم تأسف على شيء بقدر ما اسفت على عدم تمكنها من زيارة مصر . كانت تريد أن تشهد الاهرام التي قذفها ابناء مصر في الرمال تشيد بعظمتهم ، وكانت تريد ان تعيش — ولو لبضعة ايام — بين الشعب العربي في مصر لتعرف حقيقته التي كانت تخفيها عنها الصحف الانكليزية عندما تقول انه شعب خلق فقط للطرب والحشيش والبخور ، ولمناجاة النيل والليل والقمر ، وللمواويل الطويلة .. ولم تكن لتصدق كل ما قيل عن ذلك الشعب وهي تتصور الالاف من رجاله يشقون ارضهم الغالية — بين المتوسط والاحمر — بايديهم واظافرهم ليفتحوا فيها شرياناً ينقل الخير الى الانسانية .

وخرج بيل معافى من المستشفى ، وظلت السيدة كابيلا تتحرق شوقاً الى وقفة عند ابي الهول ، والى جولة في جوف الهرم الاكبر ، ونزهة ليلية على صفحة النيل ..

وعندما استقر بها المقام في لندن من جديد ، عادت الى كتب التاريخ تقرأ فيها عن الشرق ، وتقارن بين ما تقرأ عنه وبين ما شاهدت فيه.

ومضى عام ١٩٥٥ ..

مكتبة هاشم

شارع سوريا — بيروت

تلفون : ٢٦٠٧٩

كتب ادبية — مدرسية — روائية

ادوات قرطاسية

مبيع ومشترى كتب مستعملة

وفي اصيل احد ايام شباط ، وبينما كانت السيدة كابيلا واقفة في شرفة المنزل تتأمل سماء لندن الرمادية الغائمة .. جاءها صوت بيل من الخلف :

– هل تعرفين المفاجأة التي سأقولها لك ؟

فاستدارت ، وسارت اليه قائلة : بالطبع .. لا .

– هل سبق لك ان تمنيت الحياة في بلاد الشرق ؟ .

– لقد تمنيت ذلك يوم زرت دمشق .. ولكن ما من مناسبة هذا الكلام ؟

– صدر قرار من وزارة الخارجية بتعييني في دائرة البعثة الدبلوماسية بدمشق ، وسنسافر بعد عشرة ايام ..

– وهل ستأخذنا معك ؟ .

– طبعاً .. لكني اخشى الا توافق باتريشيا ، فهي تحب لندن كثيراً ..

– ساحاول اقناعها ..

– اذن .. انت موافقة ؟

– نعم موافقة .. ثم ان مكوثنا لن يكون دائماً على ما اظن .. اليس كذلك ؟

– قد يمتد الى سنوات ، وقد نرجع بعد شهر .. على كل حال هذه اشياء لا يفيدنا بحثها الآن ..

وحطت العائلة الانكليزية المؤلفة من بيل وزوجته باتريشيا وولده جيمس ووالدته كابيلا .. حطت رحالها في دمشق لتقود حياة جديدة في احدى (فيلات) شارع « ابي رمانة ».ولم تشعر السيدة كابيلا – على عكس زوجة ابنها باتريشيا – بوحشة في دمشق بعد مغادرتها لندن ، بل احست بسعادة وكأنها في زيارة لمسقط رأسها « غلاسكو » .

وفي اليوم الرابع لوصولها دمشق غادرت البيت لتشتري بعض الورد ، وعندما عرجت على (جادة الصالحية) شهدت امام البرلمان جمعاً غفيراً من الناس يسدون الشارع العريض بمظاهرة كبيرة وفوق رؤوسهم ارتفعت لافتات كامواج البحر الثائر ، بينما كانت اصوات المتظاهرين تدوي بحماس واصرار صاعدة الى السماء ..

وسألت صاحب المكتبة التي في الزاوية عن المظاهرة ، فاجابها بالفرنسية : انها مظاهرة استنكارية لاعتداءات فرنسا على احرار الجزائر..

ولما ترجم لها بعض اللافتات تركز ذهنها على واحدة « العرب امة واحدة في وجه الطغاة والمستعمرين » . وانتقلت نظراتها بين الوجوه الثائرة تقرأ عليها عناد من صمم على بذل الدم في سبيل ان ينال ما يطلب ..

ومرة اخرى ، أحست السيدة كابيلا بان تاريخ العرب لم ينقطع .. لقد حاولت في اول الامر ان تقنع نفسها بأن الشعب الذي جاءت تعيش بينه ، شعب طيب مسكين يتلاعب حكام دولتها وحلفاؤهم بمقدرات ارضه ومصيره . ولكن الانتفاضات التي تشهدها أو تنقل اليها انباءها الصحف والاذاعات من دنيا العرب الكبيرة ، كانت تقنعها بأن الشعب الطيب المسكين قد تحرر من حكم المستثمرين وبدأ يعي مدى قدراته فيفجرها في كل مكان بطولات يرويها العالم باعجاب كبير ..

واحبت السيدة كابيلا العرب .. احبتهم من اعماقها ولم تر فيهم – كما يدعي حكام بلدها في لندن – اناساً يمكن التلاعب باراضيهم ومصائرهم ، او متوحشين لا يمكن التفاهم معهم الا بالدسائس والمؤمرات . وعندما عرفت ان مظاهرة جديدة ستقوم في اسبوع الجزائر ، طلبت الى ولدها بيل ان يسمح لها لتحمل لافتة وتشترك مع المتظاهرين ، ولكنه لم يرض واصر على رأيه بالرغم من محاولاتها الملحة .. وقد ارادت ان تتمرد في بادئ الامر على ارادته وتخرج في المظاهرة رغماً عنه ، ولكنها تراجعت في اللحظة الاخيرة اذ هددها بأنه سيقدم استقالته ويستنكف عن العمل ، ويطلب النقل الى اية جهة اخرى.

وانتهى الصيف .. فهدأت المدينة الكبيرة بعد شهر المعرض الدولي الثالث وجاء الخريف يحمل معه مفاجأة لم يكن اهتمام السيدة كابيلا لها يقل عن اهتمام العرب الذين حولها ، او اهتمام ولدها بيل والدائرة السياسية التي يعمل فيها ، حتى ولا اكثر من اهتمام باتريشيا التي كانت تبدي تخوفها من شيء مجهول تشتمه في الجو بعد ان عرفت تفاصيل ثورة الشعب على المدارس الاجنبية في حلب .

* * *

ورن جرس الباب الخارجي ، فتركت السيدة كابيلا الكتاب ونهضت تفتح الباب لتستقبلها باتريشيا ممتقعة اللون ..

– خيراً يا باتريشيا ؟ .

– الم تسمعي الأخبار ؟ .

– لا .. ماذا تقول ؟ .

– لابد ان تنشب الحرب بين جيشنا وبين العرب.

– وكيف عرفت ذلك ؟ .

– لقد توغلت قوات اليهود ليلا في الصحراء المصرية الخالية مسافة خمسة وسبعين ميلا ، ويقولون ان لواء كاملا اشترك في التوغل ، ولكنه لم يصمد طويلا امام الحملة الجوية المصرية .

– وما علاقة الانكليز بذلك ؟ .

– يظهر انها مؤامرة .. ويقال ان الجيش الانكليزي اتفق مع الجيش الفرنسي للاغارة على منطقة القنال ...

ودخلت باتريشيا غرفتها تبدل ثيابها ، وجلست السيدة كابيلا على طرف الديوان تفكر .. انها تؤمن بان قومها الانكليز – بعد ان بدأ ظل سيطرتهم يتقلص على ارض البشر – لابد لهم من تغيير منهج سياستهم التي بدأت تتضارب

لجنة التأليف المدرسي

تقدم افضل الكتب التوجيهية والتربوية

المروج : ستة اجزاء في القراءة العربية

كيف اكتب : اربعة اجزاء في الانشاء العربي

الجديد في دروس الحساب : خمسة اجزاء

حسابي : جزءان للاطفال

الجديد في دروس الاشياء : اربعة اجزاء

الجديد في قواعد اللغة العربية : اربعة اجزاء

الجديد في الخط العربي : خمسة دفاتر

التعريف في الادب العربي : جزءان للمدارس الثانوية

J'apprends le Français

ثلاثة اجزاء في القراءة الفرنسية

اطلبها من دار المكشوف ، ودار بيروت

ودار العلم للملايين، ومكتبة انطوان ، ومكتبة لبنان

مع تفتح الوعي لدى الشعوب .. لابد للنبوءة التي تنبأتها للرجل الاسمر الطويل الذي قام يقود الشعب في مصر ، بأنه سيحدث انتفاضة في التاريخ ، ان تتحقق ..

وعندما ترجمت للسيدة كابيلا بلاغات راديو القاهرة الأولى عرفت ان الشيء العظيم الذي كانت تقرأه في عيون العرب قد بدأ يظهر الى الوجود ، وشعرت بأن هذه البلاغات هي الخيوط الأولى للهب عظيم بدأت شراراته تتطاير في الجو ، وتأكدت ان المعركة هذه المرة ليست مناوشة ، انما هي معركة فاصلة ، رهيبة ، قد تتسع وتشغل العالم ..

وشغلت مصر العالم ، وشغلت الدوائر الرسمية في العواصم ، فاضطرت الحكومة السورية لترحيل الرعايا الانكليز والفرنسيين من بلادها بعد أن قطعت العلاقة الدبلوماسية مع الدولتين اللتين كانت طائراتهما تضرب الشعب العربي في مصر بوحشية ما عرفتها اقوام البرابرة ..

وفي نفس الاسبوع جاءت ام فؤاد مع زوجها – صاحب الفيلا التي تسكنها عائلة بيل – فأعطت للسيدة كابيلا عنوان ابنها فؤاد في لندن ، وسلمتها رسالة اليه .

وفي اليوم التالي صعدت السيدة كابيلا ، مع ابنها وزوجه وولده ، السيارة الى بيروت ، وعندما كانت السيارة ترقى الطريق الذي الى يمين (الربوة) ، التفتت السيدة كابيلا الى الشباك الخلفي تودع دمشق .. وبكت .. فنظر اليها بيل نظرة عتاب صارمة ، ثم ادار رأسه يحدق في الافق ..

ذهبت السيدة كابيلا مع الذين ذهبوا من الاجانب الى بلادهم يحميهم القانون ، وظل العرب في ارضهم يحاربون المعتدين الذين داسوا كل الاعراف وكل القوانين .. وراحت اذاعتا القاهرة ودمشق تحملان الى العالم انباء الشعب الجبار في مصر ، يواجه ببطولة قوى الشر التي تكالبت عليه من الجو والارض والبحر .. وارتفعت من لهيب بور سعيد الجباه السمر ليقرأ العالم عليها بطولة الشعب الذي يفضل الموت الكريم على حياة المذلة ..

وفي لندن ، اتصلت السيدة كابيلا بفؤاد تدعوه ، ولما جاء سأل عن بيل فقالت له باتريشيا انه في دائرة عمله منذ الصباح الباكر . ثم طلبت اليه ان يترجم ما تقوله الاذاعات العربية ..

واهتز كيان السيدة كابيلا عندما وصف لها فؤاد الجرائم الوحشية التي يرتكبها قومها وحلفاؤهم في السويس وبور سعيد ، كما وصف لها البطولات الرائعة التي يسجلها الشعب الصامد في حوض القنال .. وعجبت كثيراً لهذه البطولة المجيدة يصنعها الشعب الذي كانوا يقولون لها عنه انه خلق فقط للطرب والبخور والمواويل الطويلة .. فسألت فؤاد : هل تعتقد ان صوت العرب يقول كل الحقيقة ؟ .

– انها الحقيقة يا سيدتي .. حقيقة امتنا التي ما كانت يوماً اسطورة .. كان وطننا العربي كله ينتفض في انتظار الانطلاق . وقد انطلق الآن في هذه المعركة التي فرضها عليه قومك ..

– انت من سورية ، فلم كل هذا الاهتمام ؟.

– كل العرب اليوم في المعركة يا سيدتي ، فهم يخوضونها في مصر بالنار والحديد والفداء والتضحيات ، وفي بقية اجزاء دنيا العرب بقلوبهم وعواطفهم وايمانهم الكبير .. كلنا في المعركة يا سيدتي ، وثقي ان كل عربي يتشوق لان يكون مكافحاً في بور سعيد .. قيادتنا مشتركة واحدة ، ووطننا ايضاً واحد ، واخواننا في مصر يكافحون اليوم في الجزء الذي حاول المعتدون ان يجعلوه ميداناً لمؤامراتهم الدنيئة ..

– هل تظن ان في الأمر مؤامرة ؟ ..

تطلب « الآداب »

في مدينة « فاس »

بمراكش

من مكتبة العلمي

زقاق لهجر ٥١

– الصبي الصغير يدرك نذالة هذا المؤامرة .. ان خطوطها مفضوحة يا سيدتي ، واعداؤنا اليهود الذين بصقتهم سفنكم في أرضنا ، يسيرون كالعميان في ركاب السير أيدن ..

وقالت باتريشيا ممازحة ، بعد ان ظلت طيلة النقاش عازفة عن الكلام :

– هل تعلم يا مستر فؤاد ان تصريحاتك هذه خطرة ؟.

– اتعتقدين ذلك ؟ . لا تنسي يا سيدتي اننا في لندن ، ام ان حرية ابدا الرأي عندكم خرافة تموت في حدائق هايدبارك وجسر واترلو ؟

– على كل حال ، لو ان المصريين قبلوا بتدويل القناة لكفوا انفسهم مغبة كل هذه المتاعب ..

– بغض النظر عن ان تأميم شركة القناة حق شرعي لمصر ، فان المشكلة لا تنحصر في قضية القنال .. إن ..

وقالت السيدة كابيلا تقاطع فؤاد : مهما يكن فان العرب كانوا يستطيعون التوصل الى حل موافق عن طريق المفاوضة ..

ولم يتمالك فؤاد اعصابه ، فانفجر في وجه المرأة الانكليزية : هل ترك الانكليز باباً للمفاوضة ؟. هل يفهم المفاوضة هؤلاء الذين زحفوا كالجراد يحملون الى بلادنا كل ما انتجته عقولهم الشريرة من وسائل التدمير والخراب ليصبوها على الدور الآمنة فيقتلون الاطفال والنساء والشيوخ ؟.

وسكت فؤاد وهو ينتفض ، فخفضت السيدة كابيلا رأسها الى سجادة الغرفة تفكر صامتة .. انها تؤمن باعماقها بكل ما يقوله هذا الشاب العربي الذي يصرخ في وجهها بحق امته وبلاده ..

وشعرت بأن خيوطاً كثيرة من النقمة تخرج من كيانها لتلتف حول المعتدين من بني قومها لتخنقهم ، وكان الخيط الذي التف حول رئيس حكومتها غليظاً قاسياً ، لا يرحم ..

واخذت شفتها السفلى بين اسنانها ، وراحت تعضها بحنق شاردة ، حتى انها لم تنتبه الى كلام فؤاد حين قال : ان العرب اليوم غيرهم بالأمس يا سيدتي . وهذه الطائرات المعتدية التي يسقطها الشعب المؤمن في بور سعيد ، لدليل كبير على ان الحق هو الذي سينتصر ..

وعندما عادت الكهلة الانكليزية الى نفسها كان الشاب السوري قد اصبح خارج الغرفة وباتريشيا قد لحقت به لتمنعه من الخروج حتى موعد الطعام ، ولكنه اصر على الخروج ، وعندما وصلت السيدة كابيلا الى الباب الخارجي ، كان فؤاد قد هبط الدرجات واندس في زحمة الشارع ..

وفي اليوم التالي ادارت قرص الهاتف لتتصل بادارة الكلية التي يدرس فيها فؤاد ، فأفادوها انه سافر الى بلده مع كل الطلاب العرب .. عاد فؤاد الى دمشق لينخرط في احدى دورات المقاومة الشعبية ، لقد ادرك – كما ادرك

كل العرب – ان المعركة – التي بدأت تخوضها الامة العربية هي معركة المصير .

وكانت سلطات لندن لا تزال ترسل الاوامر الجائرة وهي تتلكأ في الجواب على قرار الجمعية العامة لهيئة الامم ، القاضي بالانسحاب وايقاف النار ، وفي الجواب على الملايين من احرار العالم يهتفون لاحرار مصر وهم يباركون بطولتهم ويشجبون بشدة سياسة الدوائر العليا في باريس ولندن ، وظل اهالي بورسعيد يحيلون الزرقة في عيون المعتدين الى سواد مظلم كسواد قلوبهم .

ومر اسبوع آخر ، فاذا فؤاد يتلقى رسالة من السيدة كابيلا ، حملها اليه من لندن زميله اشرف وهو يقول : جاءت سيدة الى الكلية تسأل عن أحد الطلاب العرب ، ولما قدمت لها نفسي سألتني ان كنت اعرفك ، ثم سلمتني هذه الرسالة اليك

* * *

وقرأ فؤاد في الرسالة :

« يا عزيزي فؤاد ..

ان صدري يضيق كثيراً هذه الايام ، ولم استطع ان انفس قليلا مما اعانيه من الضيق الا في الكتابة الى واحد من العرب ..

ان حياتي يا صديقي حكاية عجيبة .. اطلب الى والدتك الطيبة لتقصها عليك ، فهي تعرف فصولها ، كما انها قرأت كل ما كتبته في مذكراتي عن الشرق وعن العرب ، والتي طبعتها بكراس باللغة الانكليزية واعطيتها واحداً منها .

لقد احببت شرقكم منذ اول شبابي يا عزيزي .. وقرأت كل ما كتبه التاريخ عن امم هذا الشرق وخاصة عن العرب ، وانني اعترف الآن ، وفي هذه الايام العصيبة التي تحمل الي فيها الانباء صور كفاحكم ، انكم لا تموتون ..

ان الفرس الذين عاصروا امتكم العربية ، ماتوا .. لم أجد شيئاً منهم حتى في ايران .. والروم الذين ما كانوا يظنون ان سلطانهم سينتهي من الدنيا ، ماتوا .. وظل العرب وحدهم ، لا يموتون ..

قد يكون من الحماقة ان يتنكر الانسان للحقائق الواضحة كوضوح شمس ربيع دمشق الحبيبة ، ولهذا اقول لك بكل بساطة وثقة وايمان ، ان العرب قوم لا يموتون .. والشعب الذي بنى اهرامات مصر ، يبني اليوم في بور سعيد هرماً عربياً جديداً – اضخم من اهرام الفراعنة – ليكون شاهداً على اعتداء الانكليز .. نعم على اعتداء القوم الذين انا منهم ..

ان كثيرين حولي يشجبون سياسة حكومتنا – انهم يقومون بالمظاهرات وينادون بسقوط الحكومة .. هم لا يريدون الحرب ، ولا تظن ان أماً انكليزية ترضى عن موت ولدها في ارض مصر من اجل مطامع بعض الحكام .. حتى الزعماء السياسيون العقلاء يحاولون تدبر القضية على وجه لا يزجون به الانسانية في حرب عالمية لا يعرف نتائجها الا الله ..

اسأل امك الطيبة عن ولعي بكتب التاريخ وقراءتها .. انك ستعجب كثيراً عندما تعلم انني قررت هجر هذه الكتب لاقرأ التاريخ الجديد حياً على الارض. لقد بدأ ابناء شعبك الذين تحبهم ، ابناء بور سعيد .. بدأوا يغيرون وجه التاريخ ..

وتحيتي لأمك العزيزة ، ولوالدك الكريم ، والى كل العرب الذين احبهم لأنهم شعب عظيم ، فهم يصنعون الحياة دائماً .. ولا يموتون !.

« المخلصة كابيلا »

لندن في ١٩ – ١١ – ١٩٥٦

(طبق الأصل)

دمشق **جان الكسان**

الثريات الانيقـــــة

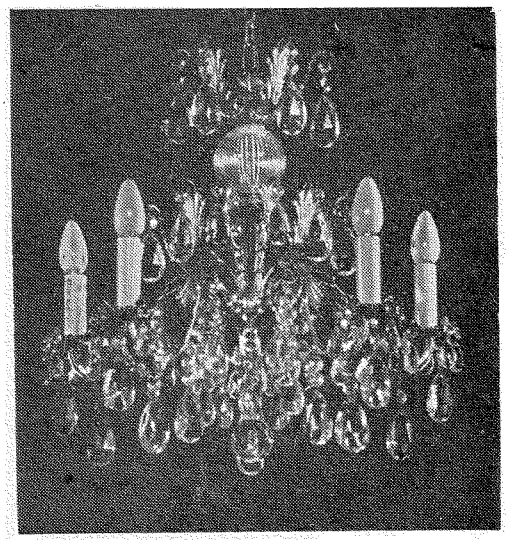

والاواني الجميلة

تجدونها في معارض

كمال وشركاه

جانب اوتيل بريستول – بيروت